مصر فى نظر عالم ألمانى

آراء جليلة من حديث

للأستاذ هرمان جرابو

أستاذ الحضارة المصرية القديمة ولغاتها بجامعة برلين

نعتقد أنه من خير « المعرفة » كل الخير ، أن تقدم إلى قرائها الأعزاء ، هذه الآراء الجليلة ، التى تبعث شعاعاً من الضوء على تاريخنا القديم والحديث ، الذى نفخر به ونفتر .

والعالم الجليل الأستاذ (هرمان جرابو) ، يعد فى طليعة علماء الألمان ، بل علماء العالم ، فى دراسة الحضارة المصرية القديمة ولغاتها ؛ ولهذا يشغل كرسى الحضارة المصرية القديمة ولغاتها بجامعة برلين ؛ وهو من التلاميذ المعدودين فى العالم ، الذين تلقوا دراساتهم على الأستاذ (أدولف إرمان) العالم الألمانى العالمى الشهير ، والملقب فى الوقت الحاضر « بأبى مدرسة الحضارة المصرية القديمة ولغاتها » .

ويسرنا فى سبيل التدليل على مكانة الأستاذ (جرابو) العلمية ، أن نذكر أنه هو المختص بالبحوث العلمية فى مجمع (بروسيا) العلمى ، وأن نذكر ـ إلى ذلك ـ أنه قضى خمسة وعشرين عاماً من عمره فى عمل قاموس كبير للغة المصرية القديمة ، يعد الأول من نوعه فى العالم ، وقد ساهم فيه مع الأستاذ (أدولف إرمان) الذى قضى فى ذلك العمل الجليل خمساً وثلاثين سنة .

وقد وفقنا ـ ولله الحمد ـ إلى إخراج هذا القاموس الكبير فى خمسة مجلدات ضخمة ، بلغ مجموع صفحاتها ٢٨٠٠ صفحة من الحجم الكبير ؛ وقد تشرف الأستاذ جرابو بتقديم نسخة منه فى الشهر المنصرم إلى جلالة الملك فؤاد الأول ، وقد لقى من جلالته كل رعاية وتقدير .

وقد أتيح لمحرر هذه المجلة أن يتحدث إلى الأستاذ (جرابو) فى جمعية الشبان المسلمين ، بواسطة صديقنا الفاضل الدكتور على مظهر ، الذى تفضل فقدمنا إليه ، وتولى ترجمة هذا الحديث الذى نقدمه إلى القراء فيما يلى :

زيارته مصر وأثرها فى نفسه

كان أول ما توجهنا به إلى الأستاذ أن سألناه عن الأثر الذى أحدثته فى نفسه زيارته مصر ، فقال :

« إن إنساناً يكرس حياته لدراسة اللغات المصرية القديمة، لطبيعي فيه — من غير شك — أن تتوجه نفسه إلى قراءة ما يتصل بحضارتها من جميع الوجوه ، ولذلك كنت أقرأ وأبحث في شغف واهتمام زائدين ، وقد كنت أسمع كثيراً عن مصر ومبلغ رقيها ، وعن آثارها ومبلغ عظمتها ، فكان ذلك كله يبعث في نفسي الرغبة تلو الرغبة لزيارتها ورؤيتها بعيني رأسي ؛ أما الآن ، وقد أتيحت لي هذه الأمنية، فرأيت بعيني ما لم أره من قبل ؛ فإني أصارحك القول ان ما رأيته أحسن وأعظم وأجل بكثير مما سمعته ؛ لأني ألمس بنفسي صوراً حية ، لم يكن جل ما سمعته أو قرأته بكاف لينقل لي صورة صحيحة عنه » .

رسالة الجامعات

وهنا انتهزنا الفرصة، فسألنا الأستاذ — باعتباره أستاذاً في جامعة كبيرة — عن ماهية رسالة الجامعات والغرض من الدراسة فيها ، فقال :

« إن الغرض الأساسي من إنشاء الجامعات على اختلاف ألوانها ، بل إن الرسالة التي تقوم بها الجامعات على تعدد جنسياتها تنحصر في إرشاد الطلاب إلى سبيل البحث الحر ، والتفكير الصحيح ، أعني أنها تبث فيهم روح التحقيق العلمي لما يعرض لهم في مختلف المسائل العلمية من شئون ؛ وبعبارة أخرى : إرشادهم إلى طريقة استعمال المفتاح » .

« وليس الغرض من الجامعات حشو أذهان الطلاب بالمعلومات، أو الحقائق الثابتة على أنها معلومات أو حقائق لا مفر من تصديقها ؛ وإنما مهمتها فتق أذهانهم وإثارة السبيل أمامهم ؛ ذلك أن العلم بحر مترامي الأطراف لا ساحل له ، ومثل الطالب منه مثل ربان السفينة الذي يجب أن يتعلم كيف يكون ربانا ماهراً ، حتى يقود سفينته في مأمن من الزعازع والأنواء » .

« والخلاصة هي أن الجامعات ليست مدارس تعلم نصوصاً بذاتها ، وإنما هي معاهد حرة مهمتها البحث في أصل العلم وكنهه » .

استقلال الجامعات

ثم سألناه عن مبلغ استقلال الجامعات في ألمانيا ، فقال :

« بالرغم من أن الحكومة هي التي تدفع مرتبات الأساتذة، فإن الجامعة مستقلة تمام الاستقلال؛ والأساتذة لهم تمام الحرية المطلقة في جميع دراساتهم وأعمالهم، سواء أكانت علمية أم أخلاقية أو اجتماعية ، حتى المسألة الدينية ، فانهم غير مقيدين فيها برأي من الآراء » .

مبلغ عناية جامعات ألمانيا بالحضارة المصرية القديمة

ثم سألنا الأستاذ عن مبلغ عناية الجامعات فى ألمانيا بحضارة مصر القديمة ولغاتها، فقال:

« إن عناية جامعاتنا بهذه الحضارة عناية كافية ، وحسبك لتعلم مقدارها أن تعرف أنه فى أكثر من سبع جامعات ألمانية توجد كراسى لدراستها؛ مثل جامعات : برلين ، ولايبتزج ، وبون .... الخ . وفى جامعة برلين وحدها يوجد الآن عشرة طلاب يتخصصون فى دراستها » .

واغتنمنا فرصة هذا لنسأله عما إذا كانت هذه العناية قد كثرت أم قلت عما كانت عليه ، بعد الحرب العالمية فأجاب : بأنها لم تتغير مطلقاً .

هل يرجع قدماء المصريين الى أصل عربى ؟

وسألنا الأستاذ ـ أيضاً ـ عن فكرة قرأناها لبعض الكتاب، يدور محورها حول إرجاع نسب قدماء المصريين إلى أصل عربى ، لوجود بعض العلاقات بين اللغة الهيروغليفية وبين اللغة العربية ، فقال :

« ليس هذا بالسؤال السهل أو الهين ، أو الذى يجاب عنه فى كلمات معدودات ، أو فى مثل هذا الوقت القصير ، وكل ما أستطيع أن أقوله لك الآن هو أن رأيى فى قدماء المصريين أنهم من أصول أفريقية امتزجت ببعض العناصر الآسيوية ، فأثرت فى لغتهم بعض التأثير الظاهر فى المفردات وغيرها » .

« على أنه وإن كانت ثمة علاقة بين اللغتين : الهيروغليفية والعربية ، فإنها لا تكفى للقول بأن قدماء المصريين من أصل عربى » .

« ثم نلاحظ أن النصوص الهيروغليفية المكتوبة قديمة ، بل أقدم بكثير من النصوص العربية المكتوبة ، التى لم توجد إلا فى أوائل الاسلام » .

تحقيق الكلمات المصرية القديمة

ثم سألناه كيف تسنى لها تحقيق معانى الكلمات المختلفة وهى قد تأتى فى مواطن مختلفة بمعان مختلفة ، فقال :

« لكى أشرح ذلك أضرب لك مثلا :

« فلنفرض أننا عثرنا على كلمة مجهولة المعنى فى موضع ما كما هى الحال فى الجملة الآتية :

« دخل الملك ... (كلمة مجهولة)... إلى المعبد. وفى موضع آخر جاء فيها... فتح الكاهن... (كلمة مجهولة) . وفى موضع ثالث كان مصراع ... (كلمة مجهولة) مصنوعاً من خشب الأرز.

وفى موضع رابع ... حُف دائر ... (كلمة مجهولة) بحجر الجير ؛ وفى موضع خامس ... كان (كلمة مجهولة) ... بين بهو القرابين بدندرة ، وبهو كل الآلهة المقدسة ؛ طوله خمسة أذرع فى عرض ثلاثة أذرع ؛ وعلى هذا يكون معنى (الكلمة المجهولة) فى هذه المواضع الخمسة إما باباً أو بوابة . ولتحقيق هذا الغرض كتبت كل الكتابات الموجودة على الحجارة، وعلى ورق البردى ـ الموجود فى كل المتاحف على وجه الأرض وفى مصر ـ ، أو صورت بآلة مصورة أو بأية طريقة أخرى وجمع كل ذلك. وقد كتبت تلك النصوص التى نحتت على جذاذات من ورق بحجم معين بحبر الطبع على الحجر ، وقسمت أقساماً : كل قسم منها مكون من ثلاثين كلمة ، وفى جانب كل ورقة كتبت صورة ترجمة مؤقتة ، وطبعت كل جذاذة ثلاثين مرة . وبهذه الوسيلة أصبح لدينا من كل جذاذة ثلاثون صورة متشابهة تماماً ، وأمكننا إذن أن نستعمل كل جذاذة من هذه الجذاذات لكل كلمة من الثلاثين كلمة المكتوبة على الجذاذة الواحدة، وبهذه الطريقة أيضاً أمكننا أن يكون لدينا كل أماكن الدلالات والاشارات لكل كلمة واحدة ، وبهذا أصبح لدينا لكل كلمة مكانها وعلاقتها بكل نص » .

أى الحضارتين أنفع لمصر : الشرقية أم الغربية ؟

وسألناه عن أى الحضارتين أنفع لنا معشر المصريين ، باعتباره عالماً بتاريخها القديم والحديث ، فقال :

« للمصريين الحق كل الحق فى أن يتجهوا نحو المثل الأعلى بالطريق التى يرونها أصلح لأنفسهم ؛ فهم أعرف بحاجاتهم وبما يصلح لهم أكثر من غيرهم » .

« وقد عرفت كثيراً من الطلبة المصريين فى ألمانيا ، فتبينت فيهم قدرة على الاضطلاع بأعباء البحث والعلم قدرة فائقة ، كما عرفت فيهم الجد والنشاط » .

« وإنه لمن خير الشباب فى مصر أن يترك حراً يختار طريقه فى حياته المستقبلة، فان للشاب كما للرجل فكراً يختلف لا باختلاف السن ولكن باختلاف التفكير ؛ فقد يصيب الشاب وقد يخطىء الرجل؛ وأنا شخصياً لم تلق إلى نصيحة ما وقت أن كنت فى سن الشباب ، بل تركت للزمن والتجارب ، لأن المستقبل للشباب دون الكهول ، والزمن كفيل بارشادهم إلى ما يحسن بهم عمله » .

ولما وصل بنا الحديث إلى هذه النقطة ، آذن صوت الناقوس ببدء محاضرة الأستاذ ، التى ألقاها بلغته الألمانية ، وترجمها صديقنا الدكتور مظهر إلى العربية بعنوان « قاموس اللغة المصرية القديمة » فاكتفينا بهذا القدر .....